فى محبة المسيح (*)

كنت فى الرابعة من عمرى ، أى من نحو سبعة وستين عامًا ، حين ألحقنى أبى مع أختى الكبرى بمدرسة الراهبات Notre dam des APotre بشبين الكوم ، ثم ألحق فى العام التالى شقيقى المرحوم فاروق ثم شريف ، ومن بعدهما الأختين الصغيرتين الباقيتين من عنقود الأولاد آنذاك .. كان النظام الذى التزم به أبى عطيه عبده ، وهو مسلم شديد الالتزام بالإسلام ، ومتنور يفهم الإخاء بين الأديان .. أن تستمر البنات بناته فى مدرسة الراهبات حتى الحصول على شهادتها ، بينما الصبيان يمكثون لعام واحد ينتقلون بعده إلى المدارس العربية وقد كان .. لا زلت أذكر أن هذا الإلحاق بمدرسة الراهبات ورئيستها الـ Me're وأعضاء التدريس من الأخوات الراهبات Soeur ، كان خاليا من أى حساسيات على الجانبين ، فلا حذرنا أبى أو أمى من أى تهاويم ، ولا استغلت المير والسيرات (الأم والأخوات) قيامهن بالتعليم لتلقين ما لا يتفق مع الإسلام .

ولا زلت أذكر أن أطباء الأسرة ، على كل التخصصات ، فى ذلك الوقت ، كان حافلا بأسماء مسيحية .. الدكتور العجوز جورجى ياتريدس خبير الباطنة (يونانى الأصل) ، والدكتور نقولا تادرس إلى جانب الدكتور عمر سعد فى طب الأسنان ، والدكتور ناشد عبد

(*) الأهرام ٥/ ٤/ ٢٠١٠.

المسيح والد الزميل صديق العمر أسعد ، وبنات الدكتور ناشد الثلاثة الصديقات الحميمات لأخواتنا الثلاثة ، والدكتور رياض سركيس ، كل هؤلاء وبلا أى تفرقة إلى جوار الدكاترة محمد مبارك ومحمد أبو باشا .. لم نعرف تفرقة بين الأطباء مرجعها إلى الانتماء الدينى أو الطائفى ، وكذلك الصيدليات ، وبين المدرسين والأصدقاء .

وقتها لم أتوقف لاستقطار الأسباب ، فلم يكن فى ذلك أى نبوّ عن مألوف يدعو إلى التساؤل ، ولما شَبَبْنا عن الطوق ، عرفنا مما قرأناه ، ثم درسناه فيما بعد وتأملنا فيه ، أن محبة السيد المسيح والمسيحيين متجذرة فى صفحات وجدان المسلمين فى بر مصر ، وأن هذا التجذر مستمد من الإسلام ذاته .. فقد دلنا مما كنا نتدارسه من الصبا ، أن احترام الأديان السماوية جزء لا يتجزأ من الإسلام ، وأن هذا الاحترام للأديان فرع على شجرة أصيلة أقرها القرآن المجيد الذى جعل الإيمان بكل الرسالات أصلا من الأصول الإسلامية .. ففى القرآن الحكيم : ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [البقرة] .

وحين توسعنا فى قراءة مدونات الأديان ، لم نجد كتابا من الكتب السماوية يتحدث بمثل الحديث الرائع الذى تحدث به القرآن المجيد عن زكريا ويحيى ومريم والمسيح عليهم السلام .. نقرأ فى المصحف ، ونسمع فى التلاوات فى الإذاعة وفى المساجد وفى التعازى ، من آيات القرآن فى هؤلاء الأنبياء الأحياء .. ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ

أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [آل عمران] .. ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [آل عمران] .. ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران] .. ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ [الحديد: ٢٧] .. ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ .. [النساء: ١٧١] .. ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧] ..

وعرفنا مما عَرَّفَنا القرآن المجيد ، المنزلة الرفيعة والتأييد الإلهى لكل من السيد المسيح وأمه مريم عليهما السلام ، وتابعنا هذه الرعاية الإلهية منذ الحمل فيه حتى رفعه الله بآيات معجزات هائلات : حمل مريم فيه بغير أب ، وكلامه فى المهد ، وجعله الماء خمرًا فى عرس «قانا الجليل» ، وتصويره الطين على هيئة طير ونفخه فيه فتكون طيرًا بإذن الله ، وابراؤه الأكمه والأبرص ، وإحياؤه الموتى بإذن الله ، وإخباره بنى إسرائيل بما يأكلون وبما يدخرون فى بيوتهم ، ومع ذلك

أحس عيسى منهم الكفر ، ومكروا لصلبه وقتله ومكر الله والله خير الماكرين. ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [آل عمران: ٥٥] .

وعن جذور هذا الإخاء ، وهذه المحبة فى بر مصر . بين المسلمين والمسيحيين بخلاف اليهود الذين أنكروا وتنمروا وشنفوا للسيد المسيح ثم لمحمد المصطفى رسول الإسلام هذه الجذور قد أخبر بها القرآن الحكيم ، وتلقيناها عنه من الصغر ، فجعلنا نقرأ ونتلو ونسمع قول الحق ﷻ : ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [المائدة] .

درجنا إذن على محبة السيد المسيح والمسيحيين ، وتعلمنا على مر الزمن ، ومراجعة ما ورد فى الأناجيل المسيحية ، وفى القرآن الحكيم أنه لا عداوة بين الإسلام والمسيحية ، فالمسيحية قوامها المحبة والسلام ، والإسلام يحترم كافة الديانات وينبذ كل أنواع العصبية وهى عدوة السماحة والإسماح .. يقول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣] .. وفى الحديث : «**كلكم لآدم .. وآدم من تراب .. إن أكرمكم عند**

الله أتقاكم» . يتسامح الناس ، ويتسامح المتدينون ، حين يدركون أن أصلهم واحد ، وأن انتماءهم إلى شجرة واحدة .. إلى ذلك لفت القرآن الحكيم ، حين نوه فى العديد من آياته إلى أن الناس جميعًا ينتمون إلى أصل واحد ونفس واحدة .. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ [النساء:١] .. ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ [الأنعام: ٩٨] .. ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٩] .. هذا التنبيه القرآنى المتكرر إلى أصل الإنسانية الواحد ، تنهدم به نعرات العنصرية والعصبية ، وتتسع الباحة الإسلامية الوارفة إلى الناس جميعا على سنة الهداية والاسماح .. لا معيار للمفاضلة إلاّ بالعمل والتقوى .. ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النجم] .

لم يحضنا الإسلام فى الإيمان به أو الدعوة إليه على مخاصمة الأديان أو أهلها ، ورأينا رسول القرآن صلى الله عليه وسلم يتزوج ويبنى بصفية اليهودية وبماريا القبطية المصرية أم ولده إبراهيم الذى رحل عن الدنيا طفلا .. وقرأنا ونقرأ ونتعلم من القرآن أن طعام أهل الكتاب والزواج من الكتابيات حل للمسلم ، لا تحريم فيه ولا تثريب عليه ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ ۖ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [المائدة: ٥] .

من يستقطر التقاليد المصرية يجد هذه المحبة متجذرة فى أصولنا المصرية إسلامية كانت أو مسيحية ، ويلحظ أنه فضلا عن توفير

القرآن للأنبياء كافة ، وللسيد المسيح عليه السلام خاصة ، فإنه قد ترسخ فى نفوس المسلم دلالة تسمية سور كاملة فى القرآن الحكيم بأسماء الأنبياء السابقين وأسرهم ، من مثل سور : نوح ، وإبراهيم ، ويونس ، وهود ، ويوسف ، ومريم ، وآل عمران ، ولذلك فقد شببنا لا نفرق بين المزارات الإسلامية والمزارات المسيحية ، وظلت السياحة المصرية حاضنة رءومة لهذه المحبة .. تراها فى المزارات المسيحية التى صارت أيضا مزارات للمسلمين فى مصر .. مزارات سانت كاترين ، والقديس مار جرجس ، والقديسة دميانة بالدقهلية، وسانت تريز بشبرا ، ودير المحرق بأسيوط وغيرها ، مزارات مسيحية يوقرها ويزورها ويتبرك بها المسلمون ..

إن ما أتبادله الآن من تهانى مع الأحباب والإخوة والأصدقاء والزملاء والجيران المسيحيين ، ليس من قبيل أداء الواجب ، وإنما هو تعبير صادق صادر من الأعماق عن هذه الأواصر والوشائج الحميمة ، ونابع مما نحمله فى صفحات وجداننا من «محبة للمسيح» .

*****